1) النصوص

بعد مرحلة اتسمت بالطول، ونُعتت بالانحطاط، وتميزت بتراجع الشعر العربي وضعفه، ظهرت جماعة من الشعراء أواخر القرن التاسع عشر على رأسها الشاعر المصري محمود سامي البارودي، عملت على إحياء القصيدة العربية بالاقتداء بطريقة الأولين في النظم. وقد عمل هؤلاء الشعراء على المزاوجة بين هذا الاقتداء والتعبير عن قضايا عصر تميز بالقهر والاستعمار والتسلط. فما مظاهر قوة وضعف هذه الحركة الشعرية حسب النص النظري الذي بين أيدينا، والذي يتناول بالدرس هذه الظاهرة الشعرية ؟

بقراءة الجملة الأولى في الفقرة الأخيرة "وعلى الرغم من الأهمية..... لم يفارقها"، نجد أن الشاعر يستعمل لفظ "إنجاز تاريخي" في علاقة بمدرسة الإحياء، إلى جانب لفظتي "محصور" و"جوانب محدودة". لذلك، نفترض أن جابر عصفور خصص نصه لإبراز مواطن قوة وضعف حركة الإحياء، فلنتحقق من ذلك بالدراسة والتحليل.

تتمحور القضية الأساس التي يعالجها النص حول دور مدرسة الإحياء وموقعها في حركية تجديد الشعر العربي، وأهم الإنجازات التي قامت بها إلى جانب الإخفاقات التي عاشتها. وهكذا، تطرق الكاتب للدور الرائد الذي قامت به هذه الحركة، والتي ربطت الصلة بأصول الشعر العربي من جهة، وبمشاكل العصر من جهة أخرى. لقد حرص الشاعر الإحيائي على التعبير عن مشاكل جماعته، فتخلى عن ذاتيته لصالح الغير. ومن ثمة، تميزت تجربته الشعرية بنفَس تعليمي يخاطب الغير ويوجهه. وقد استخلص جابر عصفور أن حركة الإحياء لم تنجح سوى في إدخال بعض التنويعات على قصيدة الأولين دون النجاح في تجديد التصور والجوهر.

وقف الكاتب على مظاهر قوة حركة الإحياء ومظاهر ضعفها ؛ استطاعت هذه الحركة بعث الشعر واستنهاض همم الجماعة والارتباط بمشاكل العصر. غير أنها روجت لمنظور غيري يقصي الذات ولا يوليها أيما اهتمام.

ولقد اعتمد الكاتب في عرضه لهذه الأفكار تصميما منهجيا محكما تمثل في تقديم الأطروحة منذ بداية النص، وتمثلت في الدور الهام الذي لعبته مدرسة الإحياء في تجديد الشعر العربي، ثم انتقل إلى تعديل هذه الأطروحة في العرض بقوله إن حركة بعث الشعر تميزت بمواطن قوة وضعف، ليخلص في الأخير إلى أن هذا الاتجاه لم ينجح سوى في إدخال تنويعات على قصيدة القدامى. ومن ثم، الإقرار بمحدودية هذه التجربة.

ولقد توسل الكاتب في عرضه لهذه الأفكار بلائحة من المفاهيم نذكر منها "المحاكاة" و"المعارضة" و"الغيرية" و"النظم الإعلامي". وتجدر الإشارة إلى أن هذه المفاهيم كلها تبرز إخفاق الشاعر الإحيائي في التعبير عن ذاته ؛ فهو يحاكي القدامى وينظم على هديهم من جهة، ويعبر عن الآخر (الجماعة) من جهة أخرى.

ثم إن جابر عصفور عمد إلى حجج منطقية لدعم أطروحته نذكر منها اقتصار التجربة الإحيائية على تنويعات محدودة أدخلتها على القصيدة القديمة لأنها لم تنجح في إعادة إبداع هذه القصيدة أو الثورة عليها.

استند جابر عصفور في مقالته إلى إطار منهجي علمي ودقيق مثَّل فيه المصطلح والحجة المظهرين الأبرزين، علاوة على التدرج من البسيط إلى المركب ؛ فلقد انتقل الكاتب من إبراز حسنات مدرسة الإحياء إلى الاستدلال على مظاهر إخفاقها. أضف إلى ذلك الارتكاز على معطيات التاريخ (نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين)، ومعطيات من الواقع (الاستعمار).

أما لغة النص، فقد وردت مباشرة وتقريرية خالية من الأساليب البلاغية والمحسنات البديعية. ونفسر ذلك بطبيعة الموضوع الذي يقتضي لغة علمية تقوم على المصطلح. أضف إلى ذلك كونها لغة متسقة اعتمدت روابط مختلفة كالرابط "لقد" الذي صدَّر به الكاتب الفقرتين الأوليين. ونشير في هذا الصدد إلى هذا الرابط يفيد التأكيد. من ناحية أخرى، عمد الكاتب إلى روابط الاستدراك في معرض حديثه عن نقائص التجربة الإحيائية مثل "إلا أن" و"على الرغم"، ناهيك عن رابط الاستنتاج في آخر النص "ومن ثَمَّ". كل هذه الروابط مكنت من اتساق النص وتلاحم أجزائه.

يتضح مما سبق أن الكاتب يعالج في نصه مظاهر قوة التجربة الإحيائية وضعفها. فقد نجحت هذه التجربة في بعث الشعر وإعادة الروح للقصيدة العربية، غير أنها عجزت عن إيجاد أسلوب خاص بها. وأعتقد أن الكاتب حمَّل هذه التجربة ما فوق طاقتها. لقد عملت على النهوض بالشعر العربي الذي انحط ومات. ومن ثمة، مصطلح البعث أو الإحياء الذي يقتضي مماتا. ونعتبر هذا الإنجاز ميزة واستحقاقا في حد ذاته، كما أنه أساسٌ جاءت التجربتين الذاتية والحداثية للعمل عليه توسيعا ونقضا.

2) المؤلفات

لا جدال في أن نجيب محفوظ علم من أعلام الرواية في العالم العربي، وفي العالم عموما. قرّب تفاصيل حياة المجتمع المصري إلى القارئ بالتركيز على عمرانه وناسه وعاداته وتناقضاته. ثم إن رواية "اللص والكلاب" لم تخرج عن هذا النهج الأدبي للكاتب. فما القوى الفاعلة التي انتظمت حولها أحداث هذا العمل ؟ وما مواقفها وعلاقاتها ؟

تعتبر شخصية سعيد مهران القوة الفاعلة الرئيسة في رواية "اللص والكلاب". دخل السجن بوشاية من زوجته نبوية وعشيقها عليش سدرة اللذين أخبرا البوليس بلصوصيته. أما رؤوف علوان فصديق مهران القديم الذي كان يتقاسم معه الموقف النبيل والفكر الحر. غير أن علوان تراجع عن مواقفه، واختار التسلق والانتهازية. لذلك، تنكر لصديقه مهران وأمره بالكف عن التردد عليه. إن مقطع الانطلاق يمثل نجوى شخصية لمهران يخبّر فيها بنية الانتقام التي تحتويه، وبأن غدر زوجته وعشيقها عليش الذي كان بالنسبة إليه المساعدَ والتلميذَ، وغدر صديقه علوان يمثل حاضرا لا يمكنه نسيانه.

لقد كان مهران مدفوعا إلى السرقة بفعل الحاجة وضرورة علاج أمه المريضة. لذلك، لم تمثل اللصوصية ثابتا من ثوابت شخصيته. وقد دخلت هذه القوة الفاعلة في علاقة صراع مع قوى عديدة تجمع بينها سمة الغدر والخيانة. ويُعتبر رؤوف علوان الممثل الأكبر لهذه السمة ؛ كان علوان المثال والقدوة لمهران وغيره من الحالمين بمجتمع أفضل خال من القيم السلبية. كان يُشجع مهران على السرقة، ويجد له مسوغات ذلك، بل إنه كان شريكا أيضا. غير أنه انقلب على مبادئه، وامتهن الانتهازية فصار من الصحفيين الأثرياء. ومن مظاهر الخيانة والغدر خيانة الزوجة والمساعد اللذين تآمرا على مهران ليخلو لهما جو الزواج.

إلا أن مسعى مهران إلى الانتقام باء بالفشل. فقد أخطأ هدفه مرتين لاعتبارات تمثل مقصدية الكاتب والرسالة التي يريد نقلها من خلال رواية "اللص والكلاب".

لقد استطاع نجيب محفوظ من خلال روايته نقل منظومة القيم السلبية التي صارت تنتشر في المجتمع المصري خلال مرحلة ما بعد الثورة. نقل تلك المنظومة بطريقة نقدية وإيحائية على السواء. لذلك، نعتبر رواية "اللص والكلاب" لبنة من البناء الروائي لهذا الأديب القائم على تحليل تفاصيل المجتمع بطريقة لا تخلو من فن وإبداع.